

العدول الصوتي في الفاصلة القرآنية من خلال تفسير التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور، سورة الضحى أنموذجا

The phonetic transposition in the Qur'anic comma through the interpretation of altahrirwaltanwir

by Sheikh Al-Taher bin Ashour ; Surat Al-Duha as amodel

د. سفيان بوعنينة

Dr. Sofiane Bouaninba

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، الجزائر

chehd07032011@gmail.com

العياشي عطوي⁽¹⁾

El Ayachi Attoui

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، الجزائر

e.attoui@univ-skikda.dz

ملخص

معلومات حول المقال

تاريخ الاستلام 2022-08-19

تاريخ القبول 2023-09-26

الكلمات المفتاحية

العدول

الفاصلة

الجمالية

التحليل

التوجيه

يتناول هذا البحث بالدراسة ظاهرة العدول الصوتي في الفاصلة القرآنية من خلال سورة الضحى، واستئناسا بتفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور - رحمة الله عليه، تهدف هذه الدراسة إلى إبراز القيمة الجمالية لهذه الظاهرة وارتباطها بالمعاني حيث تؤديها على أكمل وجه، وأمتع طريقة مما يؤكد أن العدول عن الأصل ضرب من الأساليب اللغوية التي تزيد الكلام جمالا والمعنى جلالا لتجعله مؤثرا في المتلقي ومفيدا. اخترتنا لهذه الدراسة منهج الوصف، واستعنا بأسلوب التحليل، والتوجيه. علنا نبليغ بكل ذلك الهدف المنشود منه.

مقدمة

استعمالها، وقدرتها الإبداعية على تصوير المعاني وتمثيلها؛ كما حرص على تبيان أغراض السور والفوائد التي ترتجى منها، والعبير التي تنتهي إليها، وعلى وجوه الترابط والتناسق بين آياتها، مما يجعله بحق وهو بحجمه الكبير؛ إذا أضيف إليه مضمونه الجاد، وأسلوبه البديع المشوق محيطا مترامي الأطراف، وبحرا واسع الأرجاء، يحتاج الخائض في لجّته لقوة سفينته وسلامتها من الأعطال والأعطاب، ولصلابة مجدافه وقدرته على المناورة وتخطي الصعاب. وإلا بآء سعيه بالخوار، وآل قصده إلى البوار. ومن الظواهر اللغوية الصارخة فيها: الظاهرة الصوتية المتأصلة فيها، الفريدة في بابها: تساويا وتقسيما وتوازيا، تجانسا وتناسبا، ومن أساليبها أسلوب العدول والالتفات، والتي زاداها القرآن الكريم بهما وبغيرهما رونقا وبهاء، وسمواً واهتداء إلى أن بلغ بها مبلغ الإعجاز. ومن الظواهر الصوتية اللافتة لانتباه قارئ القرآن الكريم: صوت الفاصلة بجماله الرائق، والعدول فيه من فاصلة إلى أخرى بإدهاشه الخاطف، وتناغمه مع المعاني والأغراض. مما جعل كل ذلك حالة خاصة لا تحدث، ولا ينبغي لها أن تحدث إلا في القرآن الكريم كلام الله باللغة العربية. كانت هذه الحالة

اللغة العربية لغة الجمال والجلال، وفي كل شيء منها: سواء في أصواتها وأجراسها، أو في ألفاظها وعباراتها، أو في صورها وأخيلتها، أو في معانيها ودلالاتها، أو في أساليبها وطرق تعبيرها؛ إنها لغة أخاذة جذابة، قوية التأثير، وهي فوق ذلك لغة القرآن الكريم ترتبط به ارتباطا عضويا لا تنفك عنه، اختارها على سائر اللغات لتكون وسيلته للتعبير عما نزل به من وحي، ولتبيين ما جاء به من تشريع؛ فكانت له خير وسيلة؛ إذ عبّرت فأجادت وأبانّت، وأفصحت فأفادت. كان شرفها كوسيلة من شرف ما يحمله قرآنها من غاية؛ إذ أن كل فعل علمي تجاه هذا القرآن ولا يزال لا يمكنه أن يتجاوز اللغة العربية، ولا يتم له النجاح دون أن تكون هذه اللغة هي وسيلته في البحث. وكان من أعظم وأشهر التفاسير في العصر الحديث تفسير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في تفسير الكتاب المجيد»، المختصر في قولهم «التحرير والتنوير»؛ بذل فيه الشيخ «الطاهر بن عاشور»- رحمه الله- غاية جهده، وأبان عن نفاسة علمه وعقله، اعتمد فيه على وجوه الإعجاز، وجمال البلاغة العربية، وأساليب

على «إذا» والجملة الفعلية في كل شطر من شطري البيت؛ وكأنّ الشاعر بها يعيش بين أظهرنا وليس وراءها بقرون ألفت أذنه سماع الطلقات النارية التي تنبعث من أفواه الرشاشات والبنادق لا قرع الرماح والسيوف.

وانظر إلى قول «الخنساء» في أخيها صخر:

حَمَلُ أَلْوِيَةِ هَبَّاطُ أَوْدِيَةِ شَهَادُ أُنْدِيَةِ لِلجَيْشِ جِرَارُ

نَحَارُ رَاغِيَةٍ مِلْجَاءِ طَاغِيَةٍ فَكَأَنَّ عَانِيَةَ لِلْعَظْمِ جِبَارًا!

(الخنساء، 2004)

لعلها ترانيم ساحرة أسرة دالة على شخصية مثالية تقدمها «الخنساء» عن أخيها المكابد المجاهد، الجامع لصفات القوة وصفات الإنسانية معا، تظهر الصفات الأولى عبر سلسلة من صيغ المبالغة؛ حتى إذا استهلكت أنفاسنا أثناء القراءة وأصبنا بالعياء -نحن طبعاً لا صخر- جاء الاستحقاق الذي حق به صخر «للجيش جرار» متنفساً لنا، يخفف عنا وطأة الحمل والجهد المبذول في أعضائنا الصوتية، إلا أن جهد صخر يفوق بكثير جهدنا، معبرة عن مكابדתه ومجالدته في سبيل المعالي. وتظهر الثانية من خلال النمط التعبيري نفسه حيث لا يزال يكابد ويجالد إلا أنه في هذه المرة من أجل إشاعة الروح الإنسانية من خلال أعمال الخير التي يسدها لغيره من الناس. ولا شك أننا مصابون بما أصابنا في البيت الأول.

وانظر إلى هذا البيت الذي قالته «الزباء بنت عمرو» وقد اكتشفت الخديعة المحبوكة ضدها، والمكيدة الأكيدة التي دبرها أعدؤها؛ بأن هذه الجمال لا تحمل تجارة موعودة بل هي حرب لا بد أنها بها موءودة.

ما للجمال مشيها وثيدا أجدلاً يحملن أم حديدا

(الهمداني، 1980)

إننا نجد أنفسنا مرغمين على قراءة البيت بتناقل؛ ولا شك في أن ذلك يعبر عن تناقل مثني الجمال. فلو جاز لنا أن نعثر على إنسان يقرأ العربية ولا يفهمها لقال أنّ هناك شيئاً يمكن أن يوصف بالبطء والتناقل؛ وهكذا قد نقترّب من معنى الكلام من خلال صوته وموسيقاه. وحكى «سيبويه» عن العرب: «أنهم إذا ما ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء، ما يُنون، وما لا يُنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت». (سيبويه ع، الكتاب، 1988) وكلّ هذا جعل «عباس محمود العقاد» يردّ ذلك «إلى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية الأولى، أهمها سببان: هما الغناء المفرد، وبناء اللغة نفسها

أقصد الفاصلة والعدول فيها دافعا لنا في هذا المقال للبحث والدراسة استجلاء لقيمتها الفنية والمعنوية، وإظهارا لقدرتها التأثيرية، وتثميناً للإفادات التي تكمن فيها. قدمت بحثي هذا من خلال مرحلتين الأولى كانت نظرية: دارت حول الصوت في اللغة العربية تعريفاً وأهميّة، والفاصلة منه، وأقوال العلماء العرب قدمائهم ومحدثهم فيها، وتفريقهم بينها وبين قوافي الشعر وأسجاعه، ومحاولاتهم تحديدها، وظاهرة العدول فيها. أما المرحلة الثانية فإجرائيّة: حاولت فيها إسقاط كلّ ما تمّ تناوله في المرحلة الأولى على سورة الضحى مدونة هذا البحث، وذلك من خلال عرض فواصلها، محللاً حروفها حرفاً حرفاً معتمداً على مخارج الحروف وصفاتها بعد أن حددت كلماتها، محاولاً ربط ذلك بالمعاني الدالة عليها كما وجدتها في تفسير «التحرير والتنوير» وغيره من التفاسير، محاولاً الوقوف على رأي الشيخ الطاهر بن عاشور إزاء الفاصلة القرآنية في هذه السورة. والإجابة عن هذه التساؤلات: ما مدى اهتمام القرآن الكريم بالظاهرة الصوتية؟ إلى أي حد اتخذها وسيلة تعبيرية عن مضامينه؟ ما مظهر العدول الصوتي في الفاصلة على مستوى سورة الضحى؟ وما وجوه تأديته لمعاني السورة والإيحاء بها؟ إلى أي مدى كانت طريقة القرآن الكريم في ذلك فريدة تسترعي الألباب، وتشهّي الأذواق؟ وإلى أي حد كانت سورة الضحى نموذجاً مثالياً لهذه الظاهرة؟ ما موقعها من تفسير التحرير والتنوير لهذه السورة؟

1- التجليات النظرية للمفاهيم

1-1- الأصوات في أعرافنا المفاهيمية

اللغة العربية لغة موسيقية في طبيعتها: تأمل قول «عمرو بن كلثوم» في معلقته يفتخر بقومه ويناوي أعداءه:

أَنَا الْمُطْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
وَأَنَا الْمَائِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وَأَنَا التَّارِكُونَ إِذَا سَخَطْنَا وَأَنَا الْأَخِذُونَ إِذَا رَضِينَا
وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

(ابن كلثوم، 1996)

فليس ألد وأجمل، وأنسب وأجل في التعبير عن عزة القوم في مقارعة الأعداء بالكلمة رديفة السلاح من هذا الإيقاع الذي التزمه الشاعر في أبياته، عبر تنميط لنغمات جاءت متكررة متتابعة سريعة، قائمة على ضمير الجماعة المؤكّد ب «أنّ» وصيغة اسم الفاعل مع الجماعة، وأسلوب الشرط القائم

على الأوزان.» (العقاد، 2013)

وحديث نبيه صلى الله عليه وسلم له اهتمام بالغ وعناية فائقة بالأصوات والترانيم. إنَّ الأصوات الموسيقية الشجية التي نسمعها أثناء ترتيل القرآن الكريم وتجويده واجد فيها المحزون والمكلم بغيته في استلذاذ التعبير عن حالته، فإنَّ غليظ الطبع قاسي القلب واجد من النغمات القرآنية ما يهذب تلك الطباع المغمورة نفسه في أحوالها، وتلك الضباع المتوحشة الموثوق قلبه بقيودها. وإنَّ أسير الحيرة ضائع القصد لواجد في القرآن الكريم نفحات موسيقية تهدئ من مزاج الشؤم الذي هو سالبه قوته وإرادته، وتزيل عن رؤيته غشاوة الضلال فيهدي إلى الحق وسبل الرشاد. انظر إن شئت إلى مشاعر الوحشة وأشجان الغربة التي تغمر دواخلك وتطعي سرائك بغمر من تلك المشاعر وأنت تستمع إلى الشيخ «عبد الباسط»- رحمه الله - وهو يرتل سورة يوسف، وأقول وأنت تستمع إلى صوته وقد مُزج بأصوات العربية وبالمعاني التي يريد القرآن الكريم تبليغها، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد. (ابن جني، 1952) وعلى كل فهل معاني الحروف إلا صداها في النفس؟ (عباس، 1998) وهكذا ترتبط أصوات اللغة بأغراض المتكلم ومقاصده الكلامية؛ فتعبر عن معانيه وحالاته النفسية.

كان أول عمل في تقعيد اللغة العربية قام به «أبو الأسود الدؤلي» هو تشكيل القرآن الكريم؛ فقد قال لكتابه: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن رأيتني ضممت فمي، فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعته شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين.» (الأنباري، 1985) وهكذا تكون المشكلة -في القصة المعروفة - مشكلة إعرابية بامتياز ويكون الصوت العامل الأول في حلها بامتياز أيضا. اهتم العلماء بعده مباشرة بالجانب الصوتي أولا فهذا «الخليل بن أحمد» يبني معجمه العين بناء صوتيا ويسميه العين، ويخترع أوزان الشعر العربي بوضعه لعلم العروض. كذلك كان اهتمام العلماء من بعده.

1-2- قيمة الدرس الصوتي العربي القديم

يقول «إبراهيم أنيس»: «ولقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية شهد المحدثون الأوروبيين أتمها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربي، ولا سيما في الترتيل القرآني،

ونجد القرآن الكريم يرتب أدوات تعرّف الإنسان على الكون والحياة؛ فيأتي السمع في المرتبة الأولى قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الاسراء: 63) وماذا نسمع؟ إننا نسمع أصواتا. وهذا ما يؤثر على أنّ المراحل الأولى من تعليم اللغة لا بد أن تهتم بالجوانب الصوتية، وأنها السمع؛ فإذا تقدّم المتعلم شيئا أصبح في حاجة إلى المرئيات وألها البصر، وإذا تقدّم إلى مستوى أعلى من التعليم أصبح في حاجة إلى المعاني والأفكار أكثر عن طريق آلة الفؤاد أو العقل. فماذا زادت علوم التربية في العصر الحديث على هذا القبيل مما أشار إليه القرآن الكريم ولو لم يكن مقصودا في ذاته؟ وقد اعتنى القرآن الكريم بالجانب الصوتي من اللغة عناية فائقة، ومما يثير الانتباه في هذا الشأن الظاهرة الصوتية المتميزة الغالبة والبارزة في قصار السور خاصة، وإذا كان ترتيب السور توقيفيا، وجاءت هذه القصار في القسم الأخير من الكتاب المجيد؛ فلا شك أن هناك حكمة ماضية وغاية واضحة من ذلك الترتيب وذلك الاهتمام ولعل ذلك يعود إلى أنّ السور الطوال تعتبر كليات البناء وهيكله وأقصد بناء الإسلام، وجاءت السور القصار مكملة للبناء محسنة له، ولذلك ألبست ثوبا جماليا مانعا تستلذه الأسماع، وتستريح له الأنفوس، وتميل إليه القلوب؛ طرّز هذا الثوب بألوان من الإيقاعات الموسيقية الفريدة في بابها. وأزعم حسب ما تكوّن لديّ من فهم رغم تواضعه من خلال تلك الروافد التي تسنى لي أن أرفد منها، وتلك المنابع التي حظيت أن أنهل منها. أن ليس هناك أعذب ولا أحلى، ولا أصفى ولا أجنى، ولا أشدّ إعمالا في العقل والنفس من عمل تلك الأنغام الناتجة عن أصوات قراءة القرآن تجويدا وترتيلا، وقدرتها على تمثيل المعنى، ونحن نعرف اتصالها الوثيق بعلم الأصوات العربي، واتصالها الدقيق بما يُسنى بعلم التجويد والترتيل ممّا توّصل إليه علماؤنا الأجلّاء في درسه لللغوي حول اللغة العربية بمستوياتها المختلفة المحقق لما يعرف في عالم الأدب بجلاله وجماله بالفائدة والمتعة.

وقد روى أبو هريرة عن النبي أنّه قال: «ما أذنّ الله لشيء ما أذنّ للنبي أن يتغنّى بالقرآن» [حديث صحيح متفق عليه]، أنت ترى أنّ الإسلام بقرآنه الكريم ولغة قرآنه العربية،

1-4-3- تحديد الفاصلة

ويمكن تحديد الفاصلة بالاعتماد على الأقوال التالية يقول "الزركشي": "الفاصلة هي الكلمة في آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع". (الزركشي، 2006) ويحددها "الطاهر بن عاشور" في "الكلمات التي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، مع تماثل أو تقارب صيغ النطق بها وتتكرر في السورة تكررًا يُؤدّن بأن تماثلها أو تقاربها مقصود من النظم في آيات كثيرة متماثلة" (ابن عاشور م، 1984). ويبدو لنا سبب تخرج العلماء من مقارنة الفاصلة بالقوافي والأسجاع من خلال ما ذهب إليه "السيوطي" "أنه لا يجوز تسمية الفواصل القرآنية قوافي إجماعاً؛ لأن الله تعالى لما سلب عن القرآن اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منه وخاصة به، فكما يمتنع استعمال القافية في القرآن، يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه". (السيوطي، 2008). والفاصلة ميزة صوتية معنوية يتميز بها القرآن الكريم عن كلام العرب شعراً ونثراً قال "الطاهر بن عاشور" في تفسير الآيتين 69،70 من سورة يس: "وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل، لا يجعلها موازية للقوافي، كما يعلمه أهل الصناعة منهم، وكل من زاول مبادئ القافية". (ابن عاشور ا، 1984) ولذلك كانت بابا مستقلا خاصا به يقول "مصطفى مسلم": "لكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست الفاصلة قافية شعر ولا حرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في غيره" (مسلم، 1441)؛ وهذا النفور والتخرج من المقاربة بين موسيقى القرآن الكريم وموسيقى الشعر أو النثر ناتج عن استجابتهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ (الحاقة: 41). وأن "فواصل القرآن تابعة للمعاني وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها" (أبو زهرة، 1998) كما يقول "الرماني": "وعليه فالفاصلة نغمة جديدة جاء بها القرآن الكريم لم تألف أذن العربي سماعها؛ فما سمعته هو سجع في نثر أو وزن وقافية في شعر؛ جاءت تمثل لوحات فنية موسيقية رقيقة شائعة لا نجد لها مثيلا في كلام البشر شعره ونثره. ويتضح مما سبق أن المعول في تحديدها يعود إلى تذوق الإيقاع الموسيقي للمقطع الأخير من الفاصلة والذي اجتمعت الأراء على أنه يمثل الكلمة الأخيرة منها.

1-5- تعريف العدول

1-5-1- في اللغة

قال «ابن فارس»: العين واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالتضادين، أحدهما: يدلّ على: استواء والآخر: يدل على اعوجاج. (ابن فارس، 1979).

1-5-2- وفي اصطلاح القدماء

نجد عند "سيبويه" اتساعا (سيبويه ع، 1988) وعند "ابن جني" عدولا وانحرافا وخروجا عن الأصل (ابن جني، 1952) وربط "الجرجاني" بينه أي بين العدول والمجاز، وجعله بمعنى دلالة اللفظ على معاني أخرى والتوسع فيها في حديثه عن المعنى ومعنى المعنى (الجرجاني، 1992) وهكذا عند غير هؤلاء من القدماء؛ والملاحظ أن القدماء قد يتفقون في التسمية وقد يختلفون، كما أنهم يختلفون في ربطه بظاهرة لغوية أو بلاغية ما، مما أكسب هذا المصطلح غنى وثراء.

1-5-3- وفي اصطلاح المعاصرين

نجد "تمام حسان" يعرفه بقوله: "العدول هو الخروج عن أصل أو مخالفة القاعدة، وهو من موارد التأنق اللفظي في الأسلوب" (حسان، 1993) وعند "عبد الحميد الهنداوي": "هو مِيلٌ عن النظام أو الأصل اللغوي" (الهنداوي، 2008). ومن اللافت في هذا المجال أن ما يكون اليوم عدولا عن الأصل والقاعدة قد يكتسب مع كثرة الاستعمال قدرا من الاطراد قد يرقى به على رتبة الأصل الذي يقاس عليها (حسان، 1993). فكم من قاعدة نحوية كانت عدولا عن الأصل وأصبحت أصلا، وكم من تعبير مجازي ومع كثرة الاستعمال أصبح في عرف الناس حقيقة.

1-5-4- قيمته الجمالية

تبدو قيمته الجمالية من خلال قول «الجرجاني» عنه أنه «باب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية» (الجرجاني، 1992) وعليه فهو يثري المعاني، ويوقظ الألفهام، ويحرك المشاعر، ويثير المتع الفنية واللذائذ الجمالية. وما كان هذا أمره لا يمكن وصفه بالخروج عن الأصل أو خرق القاعدة وغيرها من الأوصاف والمسميات. إلا إذا كانت له صلة وثيقة بالأصل وكان فرعاً عن القاعدة واستثناء. وانطلاقاً من كل ذلك فالعدول لا يعني الشذوذ عن الصواب في اللغة بل هو اتساع في التعبير وابداع يهدف إلى دفع المتلقي وإثارتها، وتحريك وجدانه وأخيلته وعقله، وهذه هي الغاية من الفن

على العموم.

1-5-5-وقفه مع مصطلح الخرق وبعض ما سمي به العدول

إن الله عندما تحدث عن خلق الخيل والبغال والحمير بين لنا العلة من خلقها فقال: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 8)؛ فجعل الركوب ضرورة، وجعل الجمال مما قد يبدو لنا كمالية رديفا لتلك الضرورة؛ ولذلك كان هذا الأخير مكملا للأول بل قد لا تصلح الحياة إلا بهما معاً، والجمال كما يكون مادياً يكون أيضاً معنوياً يخص الأخلاق والقيم؛ وكذلك العدول اللغوي بالنسبة إلى أصله؛ فهو فرع منه مكمل، واستثناء مفيد. ثم إنه ومن المعروف أن المصطلح العلمي في جوهره هو مظهر حضاري، ومنه أيضاً هو مظهر أخلاقي؛ ولذلك تبدو لنا بعض التسميات مع الأسف في هذا المجال نشازاً؛ حيث لا تصلح لوصف شيء متصل بالقرآن خاصة. إن مصطلح الخرق مثلا حسب ما يظهر لي لا يصلح استعماله في تسمية ما له صلة بالدين والخلق والتربية لأنه يبدو نابيا يخدش المثل والقيم، ومدعاة للجرأة على قيمنا وأعرافنا نظرا للصورة المفهومية المتعلقة به، والعالقة في أذهان الناس حول هكذا تسميات؛ فمما ورد من معاني خرق: خرق الثوب مثلا شقه، والخرقة المرقعة منه، ... وخرقوا له أو خرقتا حسب قراءة نافع أي افتعلوا ذلك كذبا. وخرقت الأرض أي جبتها، وخرق الأرض يخرقها قطعها (ابن منظور م، 1414). ومن استعملات القرآن الكريم لمادة خرق قوله: ﴿فَأَنْظَلْنَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (الكهف 71) وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: 37). وقوله: ﴿رَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (الأنعام: 100). انظر فداحة هذه المعاني التي تجتمع في إحداث الأذى المادي عموما بالشيء المخروق؛ كيف يصلح أن نعبر بهذه التسمية عن القرآن الكريم ومتعلقاته؟ و- العدول في الفواصل: «ويتم بأن يلتزم نمط صوتي ما خلال فواصل عدة ثم يعدل عنه إلى نمط آخر، وهو العدول الداخلي الذي يظهر عندما تخرج وحدة لغوية عن ذلك النمط». (فضيل، 1998)

1-6-الفواصل وعلاقتها بالمعنى

القرآن الكريم معجز في معانيه كما هو معجز في أساليبه؛ فكل عنصر لغوي أو تعبيرية فيه له علاقة بالمعنى؛ إفادة وتأثيرا والكلام الصحيح إنما يقوم على أشياء ثلاثة: «لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما... (الخطابي، 1976)؛ وقد قال «ابن جني» بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني. (ابن جني، 1952) ومن خلال تعاملنا مع تفسير التحرير والتنوير تبين لنا بكل وضوح اتجاهه الوظيفي في التحليل اللغوي؛ فاللغة عنده بكل مستوياتها وعاء يحمل المعاني ويهدف إليها، إلا أن تعامله مع الفاصلة لم يكن بتلك الدرجة من الوضوح كما لمسناه في غيرها من الأساليب فهو في الغالب يعلل كفاءات ورودها بقوله لرعاية الفاصلة، ووجدناه في كلامه عن تأثيرها في المعنى يكتفي بأحكام نظرية؛ فهو يجعلها «مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الْفَصَاحَةِ» (ابن عاشور م، 1984) ونراه في موضع آخر يركز على تأثيرها الصوتي في النفوس، ويربط ذلك بعنصر الإعجاز؛ فيقول «وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْفَوَاصِلَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُقْصُودِ مِنَ الْإِعْجَازِ لِأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَىٰ مُحَسِّنَاتِ الْكَلَامِ وَهِيَ مِنْ جَانِبِ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ، فَمِنْ الْغَرَضِ الْبَلَاغِيِّ الْوُقُوفُ عِنْدَ الْفَوَاصِلِ لِتَقَعَّ فِي الْأَسْمَاعِ فَتَتَأَثَّرُ نَفُوسُ السَّامِعِينَ بِمَحَاسِنِ ذَلِكَ التَّمَثُّلِ، كَمَا تَتَأَثَّرُ بِالْقَوَافِي فِي الشِّعْرِ وَبِالْأَسْجَاعِ فِي الْكَلَامِ الْمُسْجُوعِ» (ابن عاشور م، 1984). ولعلّه يقصد أن وظيفتها اللغوية تكمن في تأثيرها الموسيقي على النفوس والذي ينعكس على المعنى تلقيا وفهما وتمثلا. وتأسيسا على ذلك فإن التأثير بالكلام لا يتحقق إلا بتضافر المعنى مع المبنى، اللهم إلا إذا كان من كلام المجانين أو السكارى السادرين. ولذلك تجدنا نحلل الفواصل في هذه السورة انطلاقا من نظرة الشيخ الطاهر بن عاشور إليها وانطلاقا من تفسيره لآيات السورة.

2-التجليات التطبيقية

2-1-نص السورة

﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾.

2-2-التعريف بسورة الضحى

نزلت بمكة بالاتفاق (ابن عاشور م، 1984) تتناول

”خرج“، وقالوا: ”خرج“ مكان ”دخل“ هل تقبلها؟ فقال لا أقبلها فقبل له ولماذا؟ فقال لأن لفظه دخل تتحرك أصواتها من الخارج إلى الداخل، بينما لفظه خرج تتحرك أصواتها من الداخل إلى الخارج؛ انظر كيف تكون دلالة الأصوات منطقية؟ (مكي، 2012) حسب مخارجها. ففي الفاصلة المسيطرة تنتهي الفواصل في الآيات الثمانية بالألف في صورة ياء، منها ما كان أصلها واوا «كالضحى وسجى» جاءت كذلك لرعاية تناسيها مع أغلب الكلمات الأخرى المختومة بالألف والتي في أكثرها منقلبة عن ياء؛ لأن الألف تجري فيها الإمالة (ابن عاشور م.، 1984)؛ فجاءت كذلك لتناسيها؛ وهي من الحروف المدية، الجوفية، الهوائية، العلية (سيبويه ع.، 1988) جعلتها تلك الصفات تناسب الحالة النفسية الشعورية للرسول صلى الله عليه وسلم من جهة، وإرادة الله سبحانه وتعالى في طمأنته واسترضائه من جهة أخرى؛ «الألف» من الحروف اللينة التي يندفع الهواء عند نطقها من أبعد مخرج وهو الجوف، (الصحاري، 1999) ثم الحلق فالفم دون حاجز يمنعها؛ فهي بمديتها (المقروش، 2001) توحى بالبحوحة والسعة في ألطاف الله عليه، وبصفة الجوفية تدل على عمق الجرح الذي ألم به صلى الله عليه وسلم، وصفة الهوائية تجعلها منفتحة حرة في انطلاقها لا يحدها حد، ولا تقف عند سد، ولا عجب في ذلك فالله سبحانه وتعالى حينما جعل الإنسان يصبر على الطعام لأيام جعل في مقدور الناس تملكه، وعندما جعله يصبر على الماء لمدة تقل عن مدة صبره على الطعام جعل بعضهم فقط يستطيعون تملكه، وعندما كانت مدة صبر الإنسان على الهواء لدقائق جعله عصيا تماما عن تملك وتصرف البشر؛ كذلك الشأن هنا نجد تحرر ألطاف الله نحو نبيه صلى الله عليه وسلم من القيود والحدود، وتكمن دلالة عليتها أي الألف في رقتها وضعفها واستجابتها للمد، ومطاوعتها للتأقلم مع التغيرات التي تحدث في الصيغ اللفظية أسماء وأفعالا مما يناسب أجواء الألم وأجواء ملاطفة الوكيل للمكالم المتألم الموكول عليه، ومناسبة لقدرة هذا الأخير التفاعل مع جميع الحالات وتقلباتها. وعلى الجملة فإن في هذا الإيقاع نشعر بالهدوء والراحة تساوقا مع الجو الشعوري للسورة عامة. يستهل الله

الموضوعات العقائدية والأخلاقية شأنها في ذلك شأن القرآن المكي عامة. ومما ورد في سبب نزولها روى الترمذي عن ابن عيينة عن الأسود عن جنذب البجلي قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار فدميت إصبعة فقال: قل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت قال فأببطاً عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمد فأنزل الله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى: 3) وقال حديث حسن صحيح (ابن عاشور م.، 1984)؛ ولطمأنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتأكيد وقوف الله إلى جانبه نزلت هذه السورة.

2-3- موضوعها

تناولت السورة المعاني التالية: القسم بالضحى والليل، والله لا يقسم إلا بالعظيم، ثم نفي توديعه لنبيه وتخليه عنه، وبعد ذلك نجد تأكيدا له على أفضلية الآخرة على الدنيا، وتأكيد له بإغداق إعطائه عليه، وإغراقه في نعمته التامة، ثم تذكيره بحالة يتمه وفضله عليه بإيوائه والتكفل به، وحالة فقره بإغنائهم وسد حاجاته، وحالة ضلاله بهدايته وتسديد خطاه، ثم نهيه عن قهر اليتيم وقهر الفقير، وأمره بذكر نعم الله وأفضاله عليه، وإشاعتها بين الناس.

2-4- الفاصلة القرآنية فيها

على اعتبار الفاصلة هي الكلمات الأخيرة حسب رأي من ذكرناهم سابقا. حددها ”سيد قطب“ في ذلك الإيقاع المتشابه الحاصل في آخر الآيات مثل: حكيم، مبين، مريب ... (قطب، 1972) وعليه أيضا يمكننا تحديدها هنا في: ”ضحى“ ”سجى“، ”قلى“، ”أولى“ ”ترضى“، ”هدى“، ”أغنى“ في الآيات الثمانية الأولى تنتهي بألف مقصورة. وفي الآيتين التاسعة والعاشرية ب ”راء“ ساكنة ”تقهر“ و”تهر“. وفي الآية الأخيرة ب حرف ”الثاء“ في ”حدّث“. والعدول في سورة الضحى من نوع العدول الداخلي حيث تنفصل وحدة لغوية ذات انتشار محدود عن القاعدة المسيطرة على النص (فضل، 1998) وبناء عليه فقد جاءت الفاصلة في هذه السورة متنوعة على ثلاثة أنحاء: فاصلة مسيطرة، فاصلة منفصلة، وفاصلة «فريدة» (البدوي، 2005).

2-5- تحليل أصوات الفاصلة

روي عن ابن جني أنه سئل: لو أن العرب قالوا: ”دخل“ مكان